الفصل الأول

غروب الشمسين

جلست لونا على حافة الغابة، حيث ينتهي العشب الطويل ويبدأ ظلال الأشجار الفضية. جلست كما تفعل كل مساء، ساقيها مطويتين تحتها، وظهرها مستقيم كجذع شجرة يافعة، ويداها مستريحتان على ركبتيها.

الشمسان كانتا تنخفضان ببطء.

الأولى، الكبيرة الصفراء، ترسم خطوطاً ذهبية رفيعة على وجهها الأشقر وعلى الأغصان المتمايلة. أما الثانية، الأصغر والأكثر حمرة، فكانت تغرق خلف التلال الزرقاء البعيدة، تلقي بظلال أرجوانية ناعمة على كل شيء. الهواء نفسه بدا ثقيلاً بالألوان. العشب تحتها لم يكن أخضر فقط، بل كان يتوهج من الداخل بضوء خافت يتغير مع كل نسمة، كأنه يتنفس.

أغمضت لونا عينيها الذهبيتين، وأرهفت أذنيها الكبيرتين الجميلتين.

في عالمها، الأذن ليست للأصوات. الأذن للشعور. كانت تلتقط اهتزازات الأرض الخفيفة، حفيف الأوراق الذي لا يُسمع بل يُحس في الجلد، نبض الجذور العميقة تحت التراب، وحتى همس الحشرات الصغيرة وهي تمشي على سيقان العشب. كل شيء يتكلم هنا، لكن بدون صوت.

ابتسمت ابتسامة صغيرة.

من بعيد، رأت ثلاث فتيات من قريتها يجلسن في دائرة قرب البحيرة. كن يتحدثن بلغة الإشارة السريعة الأنيقة التي يتقنها الجميع منذ الطفولة. أصابعهن ترقص في الهواء، وترسم أشكالاً مضيئة من المعاني: فرح، مزاح، سر صغير. واحدة منهن رفعت يدها ولوحت لها. لونا لوحت بدورها، ثم وضعت إصبعين على جبهتها بإشارة تعني: «لاحقاً».

لم تكن مستعدة للعودة بعد.

أحبت هذه الساعة أكثر من أي شيء. ساعة الغروب المزدوج، حين يهدأ كل شيء أكثر مما هو هادئ أصلاً، وحين يبدو الكون كله وكأنه يحبس أنفاسه. كانت جدتها تقول لها دائماً، وهي ترسم بإصبعيها على راحة يدها الصغيرة:

«في الصمت وُلدنا، يا لونا. وفي الصمت نحيا. الصوت قادم من خارج السماء، وهو الموت».

أتذكر الأسطورة جيداً.

منذ ألف دورة شمسية، هبطت كائنات غريبة من السماء. كانت تتكلم بأصوات عالية مزعجة. مات نصف القرية في تلك الليلة. مات الأطفال أولاً، ثم الشيوخ، ثم الذين حاولوا الاختباء. ومنذ ذلك اليوم، أصبح الصمت مقدساً. أصبح القانون الأول. أصبح الحياة نفسها.

لونا لم تشك أبداً في الأسطورة. رأت بعينيها ما يفعله الصوت العالي ببعض الحيوانات الحساسة: ترتعش، تنزف من الأذنين، ثم تسقط بلا حركة. رأت النباتات تذبل فجأة إذا مر قربها شيء يصدر اهتزازاً عنيفاً. العالم كله مبني على هذا التوازن الدقيق.

ومع ذلك...

اليوم كان هناك شيء مختلف.

شعرت به منذ الظهيرة. اهتزاز خفيف جداً في باطن الأرض، ليس كخطوات حيوان، ولا كسقوط فرع. شيء أعمق. شيء قادم من فوق.

فتحت عينيها ونظرت إلى السماء الصافية. لا شيء. فقط الشمسان تغربان، والنجوم الأولى تبدأ في الظهور كقطرات فضة على قماش أزرق غامق.

وضعت كفيها على الأرض، وحاولت أن تقرأ الاهتزاز مرة أخرى.

كان ما زال هناك.

بعيداً، خلف الغابة الكثيفة، خلف التلال التي لم يعبرها أحد منذ أجيال.

شعرت بقشعريرة باردة تسري في عمودها الفقري. ليس خوفاً تماماً. شيء أقرب إلى الفضول الممزوج بالقلق القديم. كأنها تعرف أن هذا المساء لن يكون كالمعتاد.

نهضت ببطء. نفضت العشب عن ثوبها الخفيف المصنوع من ألياف النباتات اللامعة. أصلحَت شعرها الأشقر الطويل الذي كان يتطاير مع النسيم، ثم نظرت مرة أخيرة إلى البحيرة البعيدة حيث كانت صديقاتها ما زلن يتحادثن بإشارات مرحة.

ابتسمت لهن من بعيد، رغم أنهن لم يرها.

ثم استدارت نحو الغابة العميقة، ومشت بخطوات خفيفة لا تُحدث حتى اهتزازاً يُذكر.

الشمسان غرقتا تماماً الآن.

وبدأ الصمت الحقيقي.

الصمت الذي يسبق العاصفة.

الفصل الثاني

الاهتزاز الغريب

مشت لونا بين الأشجار الفضية بخطوات خفيفة كأنها جزء من الظل.

الليل على سيلينتيا ليس مظلماً تماماً. النجوم هنا أكثر كثافة، والقمر الصغير الذي يدور حول الكوكب يلقي ضوءاً حليبياً ناعماً يجعل الأوراق تلمع كأنها مغطاة بندى فضي. الهواء بارد قليلاً، محمل برائحة الزهور الليلية التي تفتح بتلاتها فقط بعد غروب الشمسين. رائحة حلوة مختلطة بشيء ترابي عميق.

الاهتزاز كان ما زال هناك.

شعرت به تحت قدميها الحافيتين، نبضاً بطيئاً منتظماً، كقلب عملاق يدق في باطن الأرض. ليس قوياً بما يكفي ليخيف الحيوانات، لكنه غريب. مختلف عن كل ما عرفته طوال حياتها.

توقفت عند شجرة قديمة جذعها ملتوٍ كأنه يهمس بأسرار قديمة، ووضعت كفيها على لحائه الأملس. أغلقت عينيها وتركت الإحساس ينتقل من الشجرة إلى ذراعيها ثم إلى صدرها.

كان الاهتزاز قادماً من الشمال الشرقي، من جهة التلال الزرقاء التي لم يعبرها أحد منذ زمن جدتها الكبرى.

تذكّرت كلمات الزعيم العجوز في آخر اجتماع للقبيلة، حين رسم بإصبعيه على الهواء إشارة تعني «حدود»:

«ما وراء التلال ليس لنا. الصمت هناك أعمق، والأرض تتكلم لغة مختلفة. لا تذهبوا».

لكن الفضول كان أقوى من التحذير.

عادت أدراجها نحو البحيرة، لا لتهرب، بل لتأخذ شيئاً تحتاجه. المدينة الهادئة كانت تنام الآن تحت ضوء القمر. البيوت المنخفضة المبنية من حجر أبيض لامع بدت كأنها تنمو من الأرض نفسها. لا أبواب صاخبة، لا نوافذ تغلق بصوت. فقط ستائر من نسيج رفيع يتمايل مع النسيم، وممرات مرصوفة بحصى ناعم يمتص أي اهتزاز.

رأت بعض الحراس الواقفين عند مدخل المعبد البصري. كانوا يتبادلون إشارات بطيئة هادئة، أيديهم تتحرك في الظلام كأنها ترسم نجوماً. لم تقاطعهم. انسلت بين البيوت حتى وصلت إلى بيتها الصغير قرب الشاطئ الشرقي.

دخلت دون أن توقظ أمها.

أخذت من الركن الجلدي الصغير حقيبتها الخفيفة المصنوعة من جلد حيوان الغابة، ووضعت فيها زجاجة ماء من نبع البحيرة، وثلاث ثمرات أرجوانية ناضجة، وقطعة قماش رفيعة تلفها حول أذنيها إذا اشتد الاهتزاز. ثم خرجت مرة أخرى.

البحيرة كانت ساكنة كمرآة سوداء. انعكست عليها النجوم بوضوح مذهل. على الضفة البعيدة، رأت تمثال الجدّة الأولى، منحوتاً من حجر أبيض، يداها مرفوعتان في إشارة السلام الأبدي. كانت الجدّة الأولى هي التي وضعت القانون بعد كارثة الأصوات القادمة من السماء.

لونا لمست التمثال برفق وهي تمر، كأنها تستأذن.

ثم اتجهت شمالاً.

بعد ساعة من المشي الهادئ، بدأت التضاريس تتغير. العشب أصبح أقصر وأكثر خشونة، والأشجار أقل كثافة. الاهتزاز تحت قدميها ازداد وضوحاً. لم يعد نبضاً واحداً، بل طبقات متعددة: شيء ثقيل يهتز ببطء، وفوقه رعشة أسرع وأخف.

توقفت فجأة.

أمامها، على بعد مئة خطوة تقريباً، كان العشب مضغوطاً في دائرة واسعة. كأن شيئاً ثقيلاً جداً قد هبط هناك منذ وقت قصير. التراب في المنتصف كان محروقاً قليلاً، ولونه تحول إلى رمادي داكن.

انحنت لونا، تلمّست الحافة بأصابعها.

سخونة خفيفة ما زالت باقية.

رفعت رأسها نحو السماء.

لا شيء. فقط النجوم الباردة.

لكن الاهتزاز كان الآن قوياً بما يكفي ليجعل صدرها يرتجف خفيفاً.

وضعت يدها على قلبها، وشعرت بنبضه يتسارع.

لم تكن خائفة تماماً بعد.

كانت... مستيقظة.

أكثر استيقاظاً مما كانت عليه في أي يوم من أيام حياتها الهادئة.

ابتسمت ابتسامة صغيرة في الظلام، ثم تراجعت خطوة إلى الوراء، واختبأت بين الشجيرات الكثيفة على حافة الدائرة المحروقة.

وشاهدت.

الفصل الثالث

السفينة الفضية

اختبأت لونا بين الشجيرات الكثيفة، جسدها منضغط على الأرض الباردة، وعيناها لا تفارقان الدائرة المحروقة.

مرّ وقت طويل. أو بدا كذلك. القمر الصغير تحرك قليلاً في السماء، وظلال الأشجار امتدت أكثر. الاهتزاز تحتها لم يتوقف، بل صار أوضح، كأن شيئاً ضخماً يتنفس داخل التراب.

ثم حدث الشيء.

من السماء نزل ضوء أبيض باهت، ليس كضوء الشمسين ولا كضوء النجوم. ضوء دائري منتظم، يهبط ببطء شديد. ومعه جاء اهتزاز جديد، أقوى، يضغط على صدرها كيد خفية.

downstreamت رأسها بين ذراعيها للحظة، تقاوم الرغبة في الهرب. ثم رفعت عينيها مرة أخرى.

الشيء كان يهبط الآن بوضوح. شكل فضي لامع، أملس كسطح البحيرة في ليلة هادئة، مدور من الأسفل ومفلطح من الأعلى. لم يكن يشبه أي طائر أو حجر ساقط رأته من قبل. كان... مصنوعاً.

استقرت السفينة على العشب بهدوء مخيف. اهتزت الأرض قليلاً تحتها، ثم سكن كل شيء.

لونا حبست أنفاسها.

فتحت فتحة في جانب السفينة. ضوء أصفر دافئ تسرب منها. ثم خرج شيئان.

كائنان يمشيان على رجلين.

كانا يرتديان غطاءً شفافاً لامعاً يغطي رأسيهما وجسديهما بالكامل، كأنه جلد ثانٍ. تحركت أيديهما ببطء، كأنهما يختبران الهواء. أحدهما كان أطول قليلاً، شعره الأسود يظهر من تحت الخوذة الشفافة. الآخر أقصر وأكثر امتلاءً في الكتفين.

توقفا عند حافة الدائرة المحروقة. أشار الطويل بإصبعه نحو السماء، ثم نحو الأرض، ثم نحو الغابة. الثاني هز رأسه.

ثم حدث ما لم تكن لونا مستعدة له.

تحرك فم الطويل.

لم ترَ الصوت. لكنها شعرت به.

موجة حادة، غير مرئية، اخترقت الهواء وضربت صدرها كإبرة ساخنة. ارتعش جسدها كله. أذناها الكبيرتان امتلأتا بألم مفاجئ حاد، كأن شيئاً يحاول أن يتمزق داخلهما. أغمضت عينيها بقوة، وعضت على شفتها حتى أحست بطعم معدني خفيف.

عندما فتحت عينيها مرة أخرى، رأت الحيوانات الصغيرة حولها تهرب في صمت مرعوب. طائر ليلي سقط من غصن قريب وارتطم بالأرض دون أن يرفرف. ورقة شجر ذبلت فجأة فوق رأسها.

الكائنان استمرا في تحريك أفواههما.

كل مرة كانت الموجة تأتي أقوى قليلاً.

لونا ضغطت كفيها على أذنيها، لكن الألم كان يأتي من الداخل. شعرت بدموع ساخنة تنزلق على خديها. جسدها يرتجف الآن بعنف.

الأطول بينهما التفت فجأة نحو مكان اختبائها.

هل رآها؟

تجمدت في مكانها. قلبها يدق بسرعة جنونية تحت يدها. الكائن خطا خطوة واحدة في اتجاهها، ثم توقف. رفع يده ببطء، كأنه يحاول أن يبدو غير مهدد.

لكن فمه تحرك مرة أخرى.

الموجة هذه المرة كانت مباشرة. اخترقت رأسها كصاعقة صامتة. سقطت لونا على جنبها، والعشب يطعن خدها. العالم كله دار حولها. رأت النجوم تتضاعف ثم تختفي.

حاولت أن تزحف إلى الخلف، بعيداً عن الدائرة، بعيداً عن الكائنين، بعيداً عن الموجات القاتلة.

لكن جسدها لم يعد يطيعها تماماً.

سمعت—لا، شعرت—بخطوات تقترب. الاهتزاز الثقيل لقدمين تغوصان في العشب.

رفعت رأسها بصعوبة.

الكائن الطويل كان ينحني فوقها الآن. عيناه واسعتان خلف الخوذة الشفافة، مليئتان بشيء لم تستطع أن تفهمه. شيء يشبه القلق.

مدّ يده ببطء نحوها.

ولونا، للمرة الأولى في حياتها، لم تعرف هل تهرب... أم تبقى.

الفصل الرابع

الصدمة الأولى

يد الكائن كانت قريبة جداً من وجهها.

لونا رأتها بوضوح الآن: خمسة أصابع طويلة، مغطاة بقفاز رفيع لامع، تتحرك ببطء كأنها تخشى أن تؤذيها. خلف الخوذة الشفافة، كانت عينا الرجل الطويل واسعتين، لونهما بني دافئ، وفيهما شيء يشبه الحيرة... أو الخوف.

حاولت أن تزحف إلى الخلف، لكن جسدها كان ثقيلاً. الألم في أذنيها ما زال ينبض كجمر مدفون تحت الجلد.

الرجل الثاني اقترب بسرعة أكبر. كان أقصر، حركاته أكثر حدة. توقف فوقها مباشرة، ونظر إليها نظرة سريعة، ثم حرك فمه بقوة.

الموجة هذه المرة لم تكن إبرة.

كانت مطرقة.

اخترقت رأسها من الجانبين دفعة واحدة. شعرت كأن شيئاً ينفجر داخل أذنيها. سقطت على ظهرها، وفمها مفتوح في صرخة صامتة. السماء فوقها دارت، والنجوم تلطخت كأنها تُمسح بأصابع مبللة.

الرجل الطويل أمسك بذراع رفيقه بقوة وسحبه إلى الخلف. أشار إليه بإشارات سريعة غاضبة، ثم وضع إصبعاً على فمه بحركة واضحة.

الصمت عاد للحظة.

لونا تنفست بصعوبة. يدها ارتفعت وحدها إلى أذنها اليمنى. عندما سحبتها، رأت على أصابعها لوناً أحمر قاتماً. دم.

الدم لم يكن كثيراً، لكنه كان هناك. أول مرة ترى دمها يسيل بسبب شيء غير مرئي.

ارتفعت على ركبتيها مرتجفة. العشب تحتها بدا داكناً أكثر مما يجب. نظرت حولها بسرعة.

طائر ليلي صغير كان يرقد على بعد خطوات، جناحاه ممدودان بلا حركة. ورقة شجر كبيرة فوق رأسها ذبلت تماماً وأصبحت بنية هشة في ثوانٍ. حشرة مضيئة سقطت من الهواء كأنها انطفأت.

كل شيء يموت من الموجات.

الكائنان كانا ينظران إليها الآن. الرجل الطويل رفع يديه ببطء، راحتاه مفتوحتان إلى الأمام، في إشارة عالمية تعني «لا خطر». ثم انحنى قليلاً، ووضع شيئاً صغيراً لامعاً على الأرض بينها وبينه، وتراجع خطوتين.

لونا نظرت إلى الشيء. صندوق معدني صغير، يصدر اهتزازاً خفيفاً منتظماً، ليس مؤلماً.

لكن الرجل الثاني لم يصبر.

تقدم خطوة، وحرك فمه مرة أخرى، هذه المرة بصوت بدا لها أعلى وأكثر حدة، كأنه يأمرها بشيء.

الموجة جاءت كجدار ناري.

صرخت لونا هذه المرة. صرخة حقيقية، لكنها لم تخرج صوتاً، بل خرجت اهتزازاً يائساً من جسدها كله. قفزت على قدميها كأن النار تحتها، واستدارت، وركضت.

ركضت بكل ما تبقى فيها من قوة.

الأشجار تمر بجانبها كظلال هاربة. الألم في رأسها ينبض مع كل خطوة. الدم يسيل الآن من أذنيها على عنقها، دافئاً ولزجاً. خلفها شعرت بالخطوات الثقيلة تطاردها، وبالاهتزازات الغاضبة التي يطلقها الرجل الأقصر.

لم تلتفت.

ركضت نحو الغابة الكثيفة، نحو الظلام الذي تعرفه، نحو الصمت الذي كان يحميها دائماً.

بعد مسافة طويلة، تعثرت وسقطت بين جذور شجرة عجوز. بقيت هناك، وجهها على التراب البارد، جسدها يرتجف بعنف، ويداها تضغطان على أذنيها بقوة كأنها تريد أن تمنعا العالم الخارجي من الدخول.

الدم كان ما زال يسيل.

ولأول مرة في حياتها، شعرت لونا أن الصمت نفسه قد يُكسر... وأنها قد لا تنجو هذه المرة.

الفصل الخامس

الموت الذي كاد يحدث

لونا لم تعد قادرة على الركض.

توقفت جذور الشجرة العجوز عن دعمها، وسقطت على جنبها بين الأعشاب الرطبة. العالم حولها كان ينبض بألم أحمر. كل نبضة في رأسها كانت تدفع مزيداً من الدم الدافئ من أذنيها إلى عنقها ثم إلى التراب. حاولت أن ترفع يدها لتضغط على الألم، لكن ذراعيها صارتا ثقيلتين كأنهما ممتلئتان بالماء.

سمعت—شعرت—بالخطوات تقترب من جديد.

الاهتزاز الثقيل لشخصين يمشيان بسرعة. أحدهما أخف وأسرع.

الرجل الطويل وصل أولاً.

انحنى فوقها مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يقترب كثيراً. سحب من حزامه جهازاً صغيراً مستطيلاً، ومرره ببطء فوق رأسها وجسدها. الضوء الأزرق الخافت الذي انبعث من الجهاز انعكس على وجهه خلف الخوذة. رأت عينيه تتسعان فجأة.

الرجل الثاني وصل خلفه وهو يحرك يديه بغضب. حرك فمه بقوة، والموجة الجديدة ضربت لونا كسوط حارق. انحنت على نفسها صارخة بصمت، ودم جديد سال على خدها.

الرجل الطويل استدار بسرعة، وأمسك بكتفي رفيقه بقوة تكاد تكون عنيفة. أشار إليه بإشارات حادة، ثم وضع إصبعاً على فمه بقوة، ثم على أذني لونا، ثم على الجهاز الذي في يده. هز رأسه بعنف.

لفترة قصيرة ساد صمت حقيقي.

الرجل الطويل ركع على ركبتيه على مسافة آمنة. أخرج من حقيبته قطعة قماش رفيعة لامعة، وشيئاً يشبه سوارين شفافين. اقترب ببطء شديد، كمن يقترب من حيوان جريح. وضع السوارين أولاً على معصميها، ثم لف القماش برفق حول رأسها، غطى أذنيها بالكامل.

الاهتزازات الخارجية خفت فجأة.

الألم لم يختفِ تماماً، لكنه صار بعيداً قليلاً، كأنه خلف جدار رقيق.

لونا فتحت عينيها بصعوبة. الرجل كان ما زال منحنياً فوقها. خلف الخوذة، رأته ينزع قفازيه ببطء، ثم يضع يده على صدره، ثم يشير إليها، ثم يعود بيده إلى صدره مرة أخرى. إشارة بسيطة تعني: «أنا... أنت... معاً».

حاولت أن ترد، لكن أصابعها لم تتحرك كما يجب.

الرجل الثاني كان يقف بعيداً الآن، ذراعاه متقاطعتان، ينظر إليهما بنظرة غير مصدقة. حرك فمه مرة واحدة فقط، بصوت منخفض هذه المرة، والموجة جاءت ضعيفة، شبه محتملة.

الرجل الطويل تجاهله. رفع لونا برفق بين ذراعيه، كأنها طفلة، وبدأ يعود بها نحو السفينة الفضية. كل خطوة كانت محسوبة، بطيئة، كأنه يخشى أن أي حركة مفاجئة قد تكسرها.

لونا شعرت بدفء غريب ينتقل من جسده إلى جسدها رغم البدلة. دفء مختلف عن دفء الشمسين. دفء يحمل شيئاً لم تعرفه من قبل: شعوراً بأنها لم تعد وحدها في مواجهة الموت.

أغمضت عينيها، ورأسها يرتكز على كتفه.

الدم كان ما زال يسيل تحت القماش، لكنه أبطأ الآن.

وفي مكان ما عميق داخلها، تحت طبقات الألم والخوف، شعرت بشيء آخر ينمو ببطء.

شيء يشبه الأمل.

الفصل السادس

الغيبوبة والندم

لونا لم تفتح عينيها لثلاثة أيام كاملة.

كريم وضعها في الحجرة الطبية الصغيرة داخل السفينة، على سرير ناعم مغطى بمادة تمتص الاهتزازات. ربط حول رأسها أجهزة رفيعة تراقب نبضها وحرارتها ونشاطها العصبي. الدم توقف عن السيلان بعد ساعات، لكن الموجات الدماغية كانت ضعيفة ومضطربة، كأنها تحاول أن تجد طريقها وسط ضباب كثيف.

جلس بجانبها معظم الوقت.

في اليوم الأول كان يراقب الشاشات فقط، ويعدل الواقيات الصوتية التي وضعها على أذنيها وعلى جدران الحجرة. صنع لنفسه ولـتامر خوذات خاصة تُضعف الصوت إلى اهتزاز خفيف جداً قبل أن يخرج. تامر ارتداها على مضض، وهو يتمتم بكلام لم يعد كريم يسمعه بوضوح.

في اليوم الثاني بدأ كريم يلاحظ يديها.

حتى في الغيبوبة، كانت أصابعها تتحرك أحياناً حركات صغيرة منتظمة. ليست عشوائية. أنماطاً متكررة. كان يجلس ساعات يراقبها، ثم يخرج ورقة ويحاول تقليدها. بعد عشرات المحاولات، أدرك أن بعض الحركات تشبه ما رأته تفعله مع الفتيات عند البحيرة في اليوم الأول.

لغة.

لغة كاملة بدون صوت.

في اليوم الثالث، دخل تامر الحجرة ووقف طويلاً ينظر إلى الفتاة الشقراء ذات الأذنين الكبيرتين. وجهه كان شاحباً أكثر من المعتاد.

قال بصوت منخفض جداً، شبه همس، والخوذة تُحوّل كلامه إلى اهتزاز خفيف في الهواء:

«أجهزة الاستشعار الخارجية انتهت من المسح الأول. الكوكب كله... غريب. التربة والنباتات والحيوانات، كلها مصممة لتعمل ضمن نطاق ترددات منخفض جداً. أي صوت أعلى من همس خفيف يُحدث تموجاً قاتلاً في جهازها العصبي. كأن العالم كله بُني ليقتل الضوضاء».

كريم لم يرد فوراً. كان يراقب شاشة صغيرة تعرض نشاط دماغ لونا. الخطوط بدأت تستقر قليلاً.

تامر استمر، صوته أضعف هذه المرة:

«قتلتُ طيوراً ونباتات في اليوم الأول دون أن أدري. وربما... كدت أقتلها هي».

صمت طويل ملأ الحجرة.

كريم رفع عينيه أخيراً. نظر إلى رفيقه نظرة طويلة، ثم أشار إلى الكرسي الفارغ بجانب السرير. تامر جلس ببطء، كأنه يحمل وزناً ثقيلاً على كتفيه.

خارج السفينة، كانت سيلينتيا تواصل صمتها الأبدي. الشمسان ترتفعان وتغربان، والعشب يتوهج، والبحيرة تعكس السماء بدون أي موجة صوتية واحدة.

وداخل الحجرة الطبية، كان رجلان من عالم مليء بالضوضاء يجلسان في صمت اختياري لأول مرة في حياتهما، يراقبان فتاة نائمة قد تغير كل شيء فهموه عن التواصل... وعن الذنب.

في ساعة متأخرة من الليلة الثالثة، تحركت أصابع لونا مرة أخرى.

هذه المرة كانت الحركة أوضح.

كريم انحنى بسرعة، وقلدها ببطء على راحة يده الأخرى.

ابتسامة صغيرة جداً ظهرت على وجهها النائم.

ثم عادت أصابعها إلى السكون.

لكن كريم بقي ممسكاً بيدها، إصبعه يلامس إصبعها بلطف، كأنه يخاف أن يقطع هذا الخيط الرفيع الذي بدأ ينسج بين عالمين.

الفصل السابع

اليقظة

في صباح اليوم الرابع، فتحت لونا عينيها.

الضوء داخل الحجرة الطبية كان خافتاً ودافئاً، ليس كضوء الشمسين. للحظة لم تعرف أين هي. الجدران الملساء، الرائحة المعدنية الخفيفة، الإحساس الغريب بالقماش الناعم تحت جسدها... كل شيء مختلف.

ثم رأت الرجل.

كان جالساً على الكرسي بجانبها، رأسه منحنٍ قليلاً من الإرهاق، عيناه مغمضتين. الخوذة الشفافة ما زالت على رأسه، والقفازات منزوعة. يده كانت قريبة من يدها على حافة السرير.

لونا حركت أصابعها ببطء.

الألم في رأسها كان موجوداً، لكنه بعيد الآن، كذكرى سيئة. رفعت يدها الأخرى ولمست السوار الشفاف حول معصمها، ثم لمست القماش الذي ما زال يلف أذنيها بلطف.

الرجل فتح عينيه فجأة.

نظراتهما تلاقيا.

للحظة طويلة لم يتحرك أحد. ثم رفع كريم يده ببطء شديد، ووضعها على صدره، تماماً كما فعل في الغابة. بعد ذلك مدّ يده نحوها، راحته مفتوحة إلى أعلى، في إشارة واضحة تعني: «أنا هنا... لا خوف».

لونا راقبته. ثم، بتردد، كررت الحركة نفسها: يد على صدرها، ثم راحة مفتوحة نحوه.

ابتسامة متعبة ظهرت على وجه كريم. أحسّت بها أكثر مما رأتها.

أشار إليها أن تبقى مستلقية، ثم نهض وخرج من الحجرة للحظات. عاد ومعه لوح أبيض صغير وقلم داكن. جلس مرة أخرى، وكتب ببطء على اللوح كلمات بلغة لم تفهمها، ثم رسم تحتها صورة بسيطة: شمسين، شجرة، فتاة، ورجل يمد يده.

لونا نظرت إلى الرسم طويلاً. ثم مدّت يدها وأخذت القلم منه بحذر. على الجزء الفارغ من اللوح رسمت دائرة كبيرة، ثم خطوطاً متموجة تخرج منها كأنها موجات، ثم شطبتها بخط أحمر قوي. بعد ذلك رسمت يداً مفتوحة، ووجهاً مبتسماً صغيراً.

كريم فهم.

هزت رأسها موافقة، ثم أشارت إلى أذنيها المغطيتين، ثم إلى اللوح، ثم إلى فمه، ثم شطبت الهواء بيدها كأنها تمحو شيئاً خطيراً.

الصوت... سم.

أومأ كريم برأسه ببطء. وضع يده على قلبه مرة أخرى، ثم خفض رأسه قليلاً في حركة تشبه الاعتذار العميق.

لونا راقبته. للمرة الأولى منذ أن رأته، لم تشعر بالرغبة في الهرب. مدّت يدها ببطء ولمست طرف أصابعه.

كان جلده دافئاً.

خارج الحجرة، كان تامر يقف عند الباب المفتوح قليلاً، يراقب المشهد دون أن يدخل. وجهه لم يعد يحمل الغضب القديم. كان يحمل شيئاً آخر: فهماً متأخراً، وندماً صامتاً.

كريم كتب على اللوح كلمة واحدة كبيرة، ثم رسم تحتها نجمة صغيرة. لونا لم تفهم الكلمة، لكنها فهمت النية. ردّت برسم موجة صغيرة هادئة، ثم دائرة حولها كأنها تحميها.

تواصل حقيقي.

بدون صوت.

بدون ألم.

فقط يدان، ولوح أبيض، وعينان تتحدثان أكثر مما تستطيع أي لغة في العالمين أن تقوله.

ابتسمت لونا للمرة الأولى منذ سقوطها في الغابة.

وابتسامتها كانت هادئة... وجميلة جداً.

الفصل الثامن

عالمان

بعد يومين إضافيين، كانت لونا قادرة على المشي ببطء.

كريم صنع لها واقية أذن أخف وأكثر أناقة، شفافة تكاد لا تُرى، تلتصق بجلدها كأنها جزء منها. لنفسه صنع خوذة أدق، تُحوّل أي كلام إلى اهتزازات جسدية خفيفة جداً بدلاً من صوت. تامر بقي في السفينة هذه المرة، يراقب الأجهزة ويحرس المحيط.

خرجا معاً في ساعة الصباح الباكر، حين كانت الشمس الأولى ما زالت منخفضة والشمس الثانية تتسلل بضوءها الأحمر الناعم.

لونا مشت أمامه بخطوات خفيفة مألوفة، تشير له من حين لآخر أن يحذر من جذر أو حجر. كريم يتبعها في صمت، يشعر أن كل خطوة يخطوها في هذا العالم هي امتياز لم يكن يستحقه بعد.

بعد ساعة وصلوا إلى حافة المدينة.

كريم توقف رغم نفسه.

البيوت لم تكن مبنية بقدر ما كانت... نامية. حجر أبيض لامع يختلط بنباتات متسلقة تتوهج بأضواء خافتة زرقاء وخضراء. الشوارع مرصوفة بحصى ناعم يمتص أي اهتزاز. لا أبواب تصطك، لا نوافذ تُغلق، فقط ستائر رقيقة من نسيج حي تتمايل مع النسيم كأنها تتنفس.

في الساحة المركزية، كان الناس يتحركون بهدوء راقٍ. أيديهم تتحدث في الهواء: إشارات سريعة أنيقة، أصابع ترسم معاني معقدة في ثوانٍ. بعضهم يجلس في دوائر صغيرة يتبادلون أشكالاً مضيئة من الضوء الملون تخرج من أجهزة صغيرة على معاصمهم. فنانون يرسمون على ألواح كبيرة باستخدام رمال ملونة تهتز بلمسات أصابعهم فتشكل صوراً تتحرك ببطء.

لونا التفتت إليه، ورأت وجهه.

ابتسمت، وأشارت بيدها إشارة تعني: «انظر... هذا نحن».

أخذته أولاً إلى البحيرة. هناك رأى أطفالاً يلعبون بلعبة غريبة: يطلقون موجات اهتزازية خفيفة جداً من أيديهم فترقص قطرات الماء في الهواء وتشكل أشكالاً قبل أن تسقط. لا ضحكات عالية، فقط عيون لامعة وأفواه مفتوحة بفرح صامت.

ثم أخذته إلى المعبد البصري.

كان مبنى دائرياً مفتوحاً للسماء، جدرانه الداخلية مغطاة برسوم متحركة تتغير مع الضوء. في الوسط تمثال الجدّة الأولى، يداها مرفوعتان. حول التمثال جلس كبار القبيلة في صمت عميق، يتواصلون بإشارات بطيئة ثقيلة بالمعنى. عندما رأوا لونا مع الغريب، توقفوا. نظرات حذرة، ثم فضولية.

لونا تقدمت وروت لهم بإشاراتها السريعة ما حدث. كيف سقطت، كيف أنقذها هذا الرجل، كيف أن الصوت عنده كان سماً دون أن يدري. كريم وقف صامتاً، رأسه منخفض قليلاً، يحترم اللحظة.

أحد العجائز اقترب أخيراً. وضع يده على كتف كريم للحظة قصيرة، ثم رسم في الهواء إشارة تعني: «مرحباً... بحذر».

كريم رد بالإشارة نفسها التي علمته لونا: يد على الصدر ثم راحة مفتوحة.

خرجوا من المعبد والشمس الثانية تبدأ في الارتفاع. جلسا على صخرة تطل على المدينة كلها. لونا أخرجت من حقيبتها ثمرتين أرجوانيتين وأعطته واحدة. تذوقها. كانت حلوة بطريقة لم يعرفها من قبل، وكأنها تحمل طعم الضوء نفسه.

intermediate بينهما صمت طويل مريح.

كريم نظر إلى المدينة، ثم إلى لونا. في ضوء الصباح كانت أذنها الكبيرة تبدو شبه شفافة، وشعرها الأشقر يلمع كذهب ناعم. شعرت نظرته، فالتفتت إليه. عيناها الذهبيتان كانتا هادئتين، وفيهما شيء جديد لم يكن موجوداً في الغابة يوم سقوطها.

شيء يشبه القبول... وربما أكثر قليلاً.

أشارت إلى المدينة، ثم إلى صدرها، ثم إليه، ثم رسمت في الهواء جسراً صغيراً بين عالمين.

كريم فهم.

أومأ برأسه، ومدّ يده ببطء. وضعت لونا يدها في يده دون تردد هذه المرة.

جلسا كذلك وقتاً طويلاً، يدان متلامستان، والمدينة الصامتة تنبض بالحياة أمامهما، والشمسين ترتفعان في سماء لم تعرف الضوضاء أبداً.

ولأول مرة منذ أن هبط على هذا الكوكب، شعر كريم أنه لم يأتِ ليكتشف عالماً جديداً.

شعر أنه وصل أخيراً إلى مكان كان يجب أن يعرفه منذ البداية.

الفصل التاسع

السفينة الثانية

كان الغروب الثاني بعد زيارة المدينة هادئاً وجميلاً.

لونا وكريم جلسا مرة أخرى على الصخرة نفسها، يراقبان الشمسين تغرقان خلف التلال. يداهما ما زالتا متلامستين من حين لآخر، كأن اللمس صار لغة ثالثة بينهما.

كريم كان يحاول أن يتعلم إشارة جديدة كل ساعة، ولونا تصحح له بابتسامة صبورة كلما أخطأ.

ثم جاء الاهتزاز.

قوي. ثقيل. مختلف تماماً عن اهتزاز سفينتهما الصغيرة.

لونا انتفضت أولاً. سحبت يدها، ووضعت كفيها على الأرض، وعيناها تتسعان. كريم شعر به بعد ثانية واحدة عبر الواقية. نهض بسرعة ونظر إلى السماء.

ضوء أبيض قاسٍ كان يهبط من الشمال هذه المرة. أكبر بكثير. شكل السفينة أكثر حدة وزوايا، لونها رمادي داكن كلون الحديد القديم. لم تهبط بهدوء. الهواء اهتز بعنف حولها، والعشب انحنى كأنه يهرب.

هبطت على بعد كيلومتر واحد فقط من السفينة الأولى.

كريم شعر بشيء بارد يسري في معدته.

«تامر»، قال داخل خوذته بصوت منخفض جداً يتحول إلى اهتزاز. «هل ترى ما أرى؟»

جاء الرد سريعاً من السفينة: «أراه. إشارة تعريف عسكرية-تجارية. شركة استخراج معادن. القائد اسمه... راكان. أعرفه بالسمعة. لا يحب الانتظار».

لونا كانت تنظر إلى السفينة الجديدة بوجه شاحب. أشارت بسرعة: «خطر... صوت... موت». ثم أمسكت بذراع كريم بقوة.

خلال دقائق خرج من السفينة الجديدة أربعة رجال ببدلات ثقيلة. تحركاتهم كانت واثقة وخشنة. أحدهم، الأطول والأكثر صلابة، نزع خوذته رغم التحذيرات التي أرسلها كريم على الفور عبر الجهاز.

صوته جاء عالياً وواضحاً حتى من المسافة.

الموجة ضربت كجدار.

لونا انحنت على نفسها كأن شيئاً طعنها في الصدر. كريم أمسكها بسرعة وفعّل الواقية الإضافية حولها. من بعيد سمع—شعر—بصرخات صامتة. طيور تسقط من السماء. أشجار تهتز أوراقها ثم تذبل على الفور.

تامر ركض نحوهما من السفينة الأولى، وجهه متوتر.

«قلت له إن الكوكب حساس للصوت»، قال كريم بسرعة وهو يدعم لونا. «أرسلت التقرير كاملاً».

تامر هز رأسه: «راكان لا يقرأ التقارير التي لا تعجبه. يقول إن المعادن النادرة هنا تساوي ثروة، وإن "الحساسية" مجرد مبالغة من علماء ضعفاء».

الرجال الأربعة كانوا يتقدمون الآن نحوهم. القائد راكان رفع يده في تحية عسكرية جافة، ثم تكلم من جديد بصوت جهوري متعمد:

«كريم؟ تامر؟ جميل أن نجد أحداً هنا. هذا الكوكب مليء بالثروات تحت السطح. سنبدأ الحفر غداً».

لونا رفعت رأسها بصعوبة. الدم بدأ يرشح من جديد تحت الواقية الشفافة. نظرت إلى كريم نظرة مليئة بالرعب والرجاء في آن واحد.

كريم تقدم خطوة إلى الأمام، واضعاً نفسه بين الرجال الجدد وبين لونا.

قال بهدوء، صوته يتحول إلى اهتزاز محكم:

«أي صوت عالٍ هنا يقتل. أي اهتزاز قوي يقتل. هذا ليس كوكباً للاستخراج. هذا عالم حي، وسكّانه يدفعون ثمن كل كلمة ننطقها».

راكان ضحك. ضحكة عالية قصيرة.

الموجة الإضافية أسقطت لونا على ركبتيها.

كريم ركع بجانبها فوراً، يده على كتفها، بينما تامر يقف خلفهما في صمت غاضب.

راكان نظر إليهما باستهزاء خفيف، ثم قال وهو يستدير نحو رجاله:

«غداً نبدأ. ومن لا يعجبه... فليبقَ صامتاً».

الشمسين غرقتا تماماً خلف الأفق.

والظلام الذي نزل على سيلينتيا هذه الليلة لم يكن هادئاً.

كان محمّلاً بتهديد جديد... وبصوت لم يُروَّض بعد.

الفصل العاشر

التمرد

الصباح التالي جاء ثقيلاً كالحجر.

كريم لم ينم. جلس طوال الليل بجانب لونا داخل السفينة، يراقب جهازها العصبي وهو يحاول أن يتعافى من الموجات الجديدة. الدم توقف مرة أخرى، لكن الضعف كان أعمق هذه المرة. عيناها كانتا مفتوحتين، لكنها لم تعد ترسم إشارات كثيرة. فقط تمسك بيده من حين لآخر كأنها تتأكد أنه ما زال موجوداً.

عند شروق الشمس الأولى، خرج راكان ورجاله معدات ثقيلة. آلات حفر كبيرة، وأجهزة اهتزاز أرضي، ومكبرات صوت محمولة «للتنسيق» كما قال.

تامر كان يقف بين السفينتين، وجهه متوتر. كريم اقترب منه وقال بهدوء:

«لا تساعدهم».

تامر لم ينظر إليه. «أنا لا أساعد. أنا... أحاول أن أجد حلاً وسطاً. ربما إذا عملوا في منطقة بعيدة...».

«لا يوجد منطقة بعيدة بما يكفي»، قطع كريم. «الكوكب كله متصل. الاهتزاز ينتقل عبر التربة كالمرض».

لكن تامر لم يرد. مشى نحو راكان.

لونا، التي كانت تراقب من باب السفينة، أمسكت بذراع كريم بقوة. عيناها تقولان ما لم تعد قادرة على رسمه بوضوح: «لا تتركهم يفعلون هذا».

كريم نزل ومشى نحو المجموعة. رفع يديه في إشارة السلام التي تعلمها، ثم قال بصوت منخفض محكم عبر الواقية:

«راكان، اسمعني مرة واحدة فقط. السكان هنا يموتون من الصوت. رأيتُ بعيني كيف ينزفون. كيف تسقط الطيور. هذا ليس اكتشافاً علمياً... هذا إبادة بطيئة».

راكان نظر إليه نظرة باردة. «أنت عالم، كريم. أنا رجل أعمال ومهام. المعادن هنا نادرة جداً، والعقد الذي معي لا ينتظر مشاعر. إذا كان السكان ضعفاء إلى هذا الحد، فهذه مشكلتهم».

ثم أدار ظهره وأشار إلى رجاله أن يشغّلوا أول جهاز اهتزاز.

الأرض ارتجفت.

موجة منخفضة عميقة انتشرت كدائرة في العشب. من بعيد، من جهة المدينة، شعرت لونا بالصدمة قبل أن يراها أحد. أمسكت رأسها وصاحت صرخة صامتة، ثم سقطت على ركبتيها.

كريم ركض نحوها.

وفي اللحظة نفسها، جاء الصوت.

راكان رفع مكبر الصوت المحمول وتكلم بصوت عالٍ متعمد، كأنه يختبر حدودهم:

«نبدأ العمل الآن. أي محاولة لعرقلة المهمة سنُعامل كمقاومة».

الموجة الصوتية كانت أقوى من كل ما سبق.

من جهة المدينة ارتفعت إشارات يائسة في الهواء، ثم توقفت فجأة. طيور سقطت كالمطر الأسود. أشجار كاملة اهتزت أوراقها ثم ذبلت في دقائق. وبعد دقائق قليلة، رأى كريم من خلال المنظار الصغير أجساداً صغيرة تسقط في الشوارع البعيدة... أطفالاً وكباراً، ينزفون من آذانهم ويفارقون الحياة في صمت مروع.

لونا كانت على الأرض الآن، جسدها يرتجف بعنف، دم كثير يسيل من تحت الواقية هذه المرة. عيناها مفتوحتان على اتساعهما، لكنهما لم تعودا تريان كريم بوضوح.

تامر وقف مسمّراً في مكانه. وجهه أصبح أبيض كالموت. نظر إلى الآلات، ثم إلى المدينة البعيدة، ثم إلى لونا المحتضرة تقريباً، ثم إلى راكان الذي كان يبتسم ابتسامة راضية.

شيء انكسر داخل تامر في تلك اللحظة.

خلع الخوذة الواقية بعنف، ورماها على الأرض، وصرخ في وجه راكان بصوت عالٍ هذه المرة، غير عابئ بالعواقب:

«كفى! انظر ما فعلتَ! انظر!»

لكن صرخته هي أيضاً جاءت كموجة إضافية.

لونا ارتعشت مرة أخيرة، ثم استرخت في ذراعي كريم، رأسها مائلاً، والتنفس ضعيفاً جداً يكاد لا يُحس.

كريم رفع عينيه إلى تامر، ثم إلى راكان، وفيهما شيء لم يكن موجوداً من قبل: قرار بارد وواضح.

الحرب على الصمت... قد بدأت.

الفصل الحادي عشر

الاختباء والابتكار

هربوا في الليل.

تامر عطّل أجهزة التتبع في السفينة الثانية لفترة قصيرة، وكريم حمل لونا بين ذراعيه بينما كانت ما زالت شبه غائبة عن الوعي. ساروا ساعات طويلة نحو التلال الشمالية، حيث كانت الكهوف العميقة التي حذّرتها جدتها منها ذات يوم. الكهوف التي «تتكلم لغة مختلفة».

وجدوا كهفاً ضيقاً في البداية ثم اتسع إلى غرفة حجرية كبيرة في العمق. الجدران كانت مغطاة ببلورات شفافة تلتقط أي اهتزاز خفيف وتحوله إلى ضوء باهت ملون. مكان مثالي للاختباء... وللعمل.

وضع كريم لونا على فراش من الطحالب الجافة التي جمعها تامر، وغطى أذنيها بأفضل واقية صنعها حتى الآن. جلس بجانبها الليل كله، يراقب تنفسها الضعيف، يمسّد شعرها برفق كلما ارتعشت من الألم.

في الصباح التالي فتحت عينيها.

ابتسامة صغيرة باهتة ظهرت على وجهها عندما رأته. رفعت يدها ببطء ولمست خده، ثم رسمت إشارة ضعيفة تعني: «أنت هنا... جيد».

خلال اليومين التاليين عملوا معاً.

تامر كان يخرج بحذر ليجلب معدات صغيرة من السفينة الأولى، ثم يعود. كريم ولونا يجلسان ساعات طويلة على أرض الكهف. هي تعلّمه إشارات أكثر تعقيداً، وهو يرسم على اللوح مخططات لأجهزة جديدة. معاً صمما شيئاً لم يكن موجوداً من قبل: سواراً

رفيعاً يلتصق بالجلد ويحوّل الكلام إلى اهتزازات دقيقة جداً تنتقل عبر العظام مباشرة إلى الدماغ، بدون أن تمر عبر الهواء كصوت.

واقية أخرى أرق وأقوى، تتفاعل مع شدة الموجة وتغلق نفسها تلقائياً.

لونا كانت تضعف أحياناً، فيتوقف العمل. كريم يجلس خلفها ويسند ظهرها إلى صدره، يلف ذراعيه حولها بلطف، وينتظر حتى يعود لون خفيف إلى وجهها. في تلك اللحظات لم يكونا بحاجة إلى إشارات. جسداهما يتحدثان لغة أقدم من أي لغة.

في الليلة الثالثة، بينما كان تامر نائماً عند مدخل الكهف، جلسا وحدهما أمام بلورة كبيرة تلمع بضوء أزرق ناعم.

لونا أخذت يد كريم ووضعتها على صدرها، حيث كان قلبها يدق بانتظام هادئ. ثم وضعت يدها هي على صدره. نظرت في عينيه طويلاً، ثم أقرت رأسها على كتفه.

كريم أحسّ بكل شيء في تلك اللحظة: رائحة شعرها، دفء جسدها، الاهتزاز الخفيف لتنفسها ضد رقبته. رفع يده الأخرى ومرّر أصابعه ببطء شديد على حافة أذنها الكبيرة الحساسة، بحذر كأن يلمس شيئاً مقدساً.

ارتعشت لونا قليلاً، لكنها لم تبتعد. بل اقتربت أكثر.

أشارت بإصبعها إلى قلبه، ثم إلى قلبها، ثم ربطت بينهما بخط وهمي في الهواء.

كريم فهم.

أنحنى ولمس جبهته بجبهتها. أغلقا عينيهما. في الصمت العميق للكهف، وسط البلورات التي تضيء بنبضاتهما، شعرا بنفس الشيء في اللحظة نفسها:

أن العالمين لم يعودا منفصلين.

وأن شيئاً أعمق من الإنقاذ أو الفضول أو الذنب قد بدأ ينمو بينهما.

شيئاً اسمه... حب صامت.

الفصل الثاني عشر

المعركة الهادئة

في فجر اليوم الخامس داخل الكهف، قرروا أن ينتظروا لم يعد ممكناً.

أجهزة الاستشعار التي جلبها تامر أظهرت أن راكان بدأ الحفر الحقيقي. موجات الاهتزاز الأرضي وصلت حتى الكهف، خفيفة لكنها مستمرة، كألم مزمن في العظام. من المدينة جاءت إشارات يائسة عبر الاهتزازات الطبيعية: المزيد من السقوط، المزيد من الدم.

لونا وقفت رغم ضعفها. ارتدت الواقية الجديدة التي صنعوها معاً، والسوار الذي يحوّل الكلام إلى نبضات عظمية. نظرت إلى كريم وتامر، ورسمت إشارة واضحة حازمة:

«الآن... أو لا أحد يبقى».

خرجوا تحت غطاء الضباب الصباحي.

لونا قادتهم عبر مسارات لا يراها الغريب: ممرات ضيقة بين الصخور، أنفاق طبيعية تحت العشب، أماكن حيث الأرض تبتلع الاهتزازات بدلاً من أن تنقلها. وصلوا إلى تلة تشرف على موقع الحفر دون أن يُكتشفوا.

راكان كان هناك مع ستة من رجاله. الآلات الضخمة تعمل، ومكبرات الصوت تطلق أوامر عالية بين الحين والآخر. على بعد مئات الأمتار، رأت لونا أجساداً صغيرة ملقاة بلا حراك... سكان حاولوا الاقتراب أو الهرب.

كريم فعّل الجهاز الجديد.

بدلاً من الصوت، أرسل موجة اهتزازية دقيقة موجهة نحو الآلات. الموجة لم تكن قاتلة للبشر، لكنها كانت مصممة لتعبث بالترددات الداخلية للأجهزة. واحدة تلو الأخرى، بدأت الآلات ترتجف بعنف ثم تتوقف. شاشاتها تطفئ. المحركات تختنق.

راكان استدار غاضباً ورفع مكبر الصوت.

قبل أن ينطق، أطلقت لونا الإشارة.

من السوار على معصمها انبعثت سلسلة اهتزازات معقدة، انتقلت عبر الأرض كالأوامر. فجأة، من الغابة المحيطة، خرج عشرات من سكان سيلينتيا. لم يكونوا مسلحين بأسلحة تقليدية. كانوا يحملون بلورات كبيرة من الكهوف، بلورات تلتقط أي صوت عالٍ وتعكسه مضاعفاً نحو مصدره.

راكان صرخ أمراً.

الصوت ارتد عليه أقوى بعشر مرات.

سقط اثنان من رجاله على الفور، ينزفان من آذانهما. الباقون تراجعوا في فوضى.

تامر كان قد انفصل عنهما مسبقاً. ظهر فجأة من الجهة الأخرى، يقود مجموعة صغيرة من الناجين نحو مسار آمن حفرته لونا في الذاكرة. أحد رجال راكان رآه وأطلق موجة صوتية مركزة من جهاز محمول.

تامر دفع الطفل الذي كان يحمله إلى الأمام، ورمى بنفسه فوق مجموعة أخرى من السكان. الموجة ضربته مباشرة في الصدر والرأس. سقط على ركبتيه، الدم ينزف من أذنيه وأنفه، لكنه أشار لهم أن يركضوا... يركضوا ولا يلتفتوا.

كريم رأى ذلك من التلة.

صرخ اسمه داخل الواقية، لكن الصوت تحول إلى اهتزاز يائس فقط.

لونا أمسكت ذراعه بقوة وأشارت: «الآن... انهِها».

أرسل كريم الموجة الأخيرة، الأقوى. استهدفت مباشرة السفينة الرمادية نفسها. الأنظمة الداخلية ارتبكت. الأضواء انطفأت. محركات الإقلاع بدأت تصرخ ثم اختنقت.

راكان نظر حوله: رجاله يسقطون أو يهربون، الآلات ميتة، والسكان الصامتون يتقدمون ببطء من بين الأشجار كأشباح الغابة. لحظة واحدة حسب فيها الثمن، ثم أشار إلى الباقين بالانسحاب.

حملوا جرحاهم وركبوا السفينة بصعوبة. بعد دقائق، ارتفعت السفينة الرمادية باهتزاز عنيف وهربت نحو السماء، تاركة خلفها آلات محطمة... وجثثاً صامتة.

تامر كان ما زال على الأرض عندما وصلوا إليه.

وجهه شاحب، والتنفس ضحل، لكنه فتح عينيه عندما لمس كريم كتفه. ابتسامة ضعيفة ظهرت على شفتيه، ثم رسم إشارة غير مكتملة معناها: «فعلتها... أليس كذلك؟».

لونا ركعت بجانبه ووضعت يدها على جبهته. دمها هي أيضاً كان قد سال من جديد بسبب الموجات، لكنها تجاهلته. نظرت إلى كريم نظرة طويلة، وفي عينيها امتنان وخوف وأمل مختلطين.

المعركة انتهت.

لكن الثمن... لم يُحسب بعد.

الفصل الثالث عشر

الثمن

بعد انسحاب السفينة الرمادية، حملوا تامر ولونا إلى الكهف بأقصى سرعة ممكنة.

تامر كان جريحاً بشدة، لكنه مستقر نسبياً. النزيف توقف بعد ساعات، والواقيات الجديدة ساعدت جهازه العصبي على الصمود. أما لونا... فكانت مختلفة.

الجروح الصوتية المتراكمة منذ اليوم الأول كانت قد فعلت فعلها. لم يعد الدم يسيل من أذنيها فقط، بل بدا أن شيئاً أعمق قد تضرر. نبضها أصبح غير منتظم، وتنفسها يجيء في موجات قصيرة متقطعة، وعيناها تفتحان أحياناً دون أن تريا بوضوح.

كريم وضعها على الفراش نفسه الذي نامت عليه الليالي السابقة، وركع بجانبها دون أن يترك يدها لحظة. الأجهزة التي معهم كانت محدودة. فعل كل ما يعرفه، ثم كل ما لا يعرفه. عدّل الواقيات، غيّر الترددات، جرب الاهتزازات العلاجية التي علّمته لونا إياها.

لا شيء كان كافياً.

في الليلة الثانية بعد المعركة، توقفت لونا عن تحريك أصابعها.

كريم انحنى فوقها، جبهته تلامس جبهتها، وصوته يتحول إلى اهتزاز يائس ينتقل عبر العظام:

«لا تذهبي... من فضلك».

تامر كان مستلقياً على الجانب الآخر من الكهف، يراقب في صمت. قال بصوت ضعيف جداً:

«هي تدفع ثمن كل موجة أطلقناها منذ هبوطنا... وثمن موجات راكان أيضاً».

كريم لم يرد. كان يمسك يد لونا بكلتا يديه الآن، كأنه يستطيع أن يبقيها في هذا العالم بقوة قبضته وحدها.

في ساعة متأخرة من الليل، حين كانت البلورات تضيء بنور باهت أزرق، تحركت أصابع لونا أخيراً.

ضعيف جداً.

كريم انحنى بسرعة. راقب الحركة، ثم قلدها على راحة يده. كانت الإشارة تعني: «قريب... أنت».

ابتسم ابتسامة مكسورة، ودموعه سقطت على يدها دون صوت. رفع يده ووضعها على صدره، ثم على صدرها، ثم ربط بينهما مراراً كما فعلت هي من قبل. بعد ذلك رسم ببطء شديد، بإصبعه على راحة يدها، إشارة لم يعلماها من قبل... إشارة اخترعها في تلك اللحظة تعني: «أحبك».

لونا فتحت عينيها بصعوبة.

نظرت إليه طويلاً، وفي عينيها الذهبيتان كان هناك ألم كبير... وشيء آخر أكثر دفئاً. رفعت يدها المرتجفة ولامست خده، ثم رسمت على راحته الإشارة نفسها التي رسمها هو.

«أحبك».

ثم أضافت إشارة أخرى أضعف: «لا تتركني».

كريم هز رأسه بعنف، ودموعه تسقط أكثر.

«لن أتركك»، قال بالاهتزاز والعظام والإشارات معاً. «لا في هذا العالم ولا في أي عالم آخر».

أسلمت لونا رأسها إلى كتفه، جسدها يرتخي تدريجياً كأنها تسلم نفسها للنوم... أو لشيء أعمق.

كريم لف ذراعيه حولها، ودفن وجهه في شعرها، وبدأ يهتز هو أيضاً من البكاء الصامت.

خارج الكهف، كانت سيلينتيا غارقة في صمتها الأزلي.

وداخله، كان رجل من عالم الضوضاء يمسك بفتاة من عالم الصمت، ويرفض أن يترك الموت يسرق منها الكلمة الأخيرة التي قالاها معاً بدون صوت.

الفصل الرابع عشر

الشفاء

الشفاء لم يأتِ دفعة واحدة.

في الليلة التي اعترفا فيها ببعضهما، ظن كريم أكثر من مرة أنها قد رحلت. كان نبضها يختفي لثوانٍ طويلة ثم يعود خافتاً كشمعة في ريح. بقي ممسكاً بها، يهتز بهدوء منتظم كما علّمته، ينقل عبر جسده إلى جسدها إيقاعاً هادئاً يشبه نبض الأرض نفسها.

مع الفجر، جاء تامر متكئاً على جدار الكهف، وبيده حقيبة صغيرة. كان قد زحف رغم جراحه إلى حافة المدينة وتواصل مع الناجين بالإشارات التي تعلمها على عجل. عاد ومعه امرأتان عجوزتان من القبيلة، وعدة بلورات علاجية خضراء تتوهج من الداخل، وأوراق نبات نادر يُسحق ويُوضع على الصدغين.

العجوزان لم تدخلا الكهف بخوف هذه المرة. نظرتا إلى كريم طويلاً، ثم إلى يد لونا الممسكة بيده، ثم أومأتا برأسيهما. واحدة منهما رسمت إشارة تعني: «ساعد... معاً».

بدأ العلاج المختلط.

البلورات وُضعت حول رأس لونا، تلتقط الاهتزازات الضارة المتبقية داخل جهازها العصبي وتحولها إلى ضوء ينصرف إلى الجدران. الأوراق سُحقت ومُزجت بمادة من أجهزة كريم الطبية، ووُضعت على أذنيها وصدغيها. كريم عدّل السوار الاهتزازي ليرسل نبضات علاجية منخفضة جداً، متزامنة مع إيقاع قلبها.

مرّ يوم كامل دون تغيير واضح.

في اليوم الثاني، بدأت حرارة جسدها تستقر.

في اليوم الثالث، فتحت عينيها بوضوح هذه المرة، وحركت شفتيها كأنما تبتسم.

كريم كان نائماً جالساً، رأسه على حافة الفراش، عندما شعرت أصابعه بحركة خفيفة. رفع رأسه بسرعة. لونا كانت تنظر إليه، وعيناها قد استعادتا شيئاً من ذهبهما القديم.

رسمت إشارة ضعيفة لكنها واضحة: «ما زلت هنا».

ثم أضافت، ببطء أكبر: «بسببكم... أنتم الثلاثة».

تامر، الذي كان مستلقياً في الزاوية، أدار وجهه نحو الجدار حتى لا يراه أحد يبتسم.

خلال الأسبوع التالي، بدأت لونا تتعافى بثبات. كانت تقف لوقت أطول كل يوم، وتمشي داخل الكهف، ثم خارجه تدريجياً. العجوزان كانتا تزورانها يومياً، ومع كل زيارة كان عدد الفضوليين من القبيلة يزداد قليلاً. في البداية يقفون على مسافة، ثم يقتربون، ثم يبدأون في تعليم كريم إشارات جديدة بأنفسهم.

في اليوم العاشر، خرجوا جميعاً إلى ضوء الشمسين.

عند حافة الغابة، حيث كانت الدائرة المحروقة الأولى، بدأوا العمل على شيء جديد. باستخدام البلورات والواقيات والأجهزة المعدّلة، رسموا حدود منطقة دائرية واسعة. داخلها، يمكن للكلام الخفيف أن يتحول تلقائياً إلى اهتزازات آمنة. خارجها، يبقى الصمت قانوناً مقدساً.

أول «منطقة تواصل آمنة» على سيلينتيا.

لونا وقفت في وسط الدائرة، الواقية الشفافة تلمع على أذنيها، ويدها في يد كريم. حولهما وقف عشرات من أبناء قبيلتها، ينظرون بهدوء. لم يكن القبول كاملاً بعد، ولا الثقة مطلقة، لكن الإشارة التي رفعها الزعيم العجوز في النهاية كانت واضحة للجميع:

«نحاول... معاً».

كريم نظر إلى لونا. هي نظرت إليه.

في ضوء الشمسين، وسط الصمت الذي لم يعد فارغاً، شعرا أن الثمن الذي دفعاه لم يكن نهاية.

كان بداية شيء لم يعرفه عالماهما من قبل.

الفصل الخامس عشر

القرار

بعد أسابيع من بناء المنطقة الآمنة، جاء يوم الرحيل.

تامر شفي بما يكفي ليقود السفينة الأولى وحدها. الأجهزة الجديدة، والواقيات، والسجلات الكاملة لما حدث، ونسخ من لغة الإشارة... كل ذلك كان محفوظاً بعناية. وقف الثلاثة عند حافة الدائرة المحروقة القديمة، حيث هبطت السفينة أول مرة.

تامر نظر إلى كريم طويلاً قبل أن يتكلم بالاهتزاز:

«سأصل إلى الأرض. سأقدم التقرير بنفسي. وسأحاول أن أجعلهم يفهمون أن هذا الكوكب ليس للبيع ولا للاستخراج». ثم أضاف بصوت أضعف: «وإن لم يفهموا... فسأجعلهم يفهمون».

كريم وضع يده على كتف رفيقه. لم يقل كثيراً. فقط رسم إشارة تعني: «شكراً... على كل شيء».

تامر نظر إلى لونا. تردد لحظة، ثم رفع يده ووضعها على صدره، تماماً كما علّماه. لونا ردّت بالإشارة نفسها، ثم تقدمت ووضعت يدها لحظة على ذراعه في وداع هادئ.

صعد تامر إلى السفينة. الأبواب أُغلقت بلا صوت. السفينة ارتفعت ببطء، تحولت إلى نقطة فضية في السماء، ثم اختفت.

بقي الاثنان وحدهما.

لونا أخذت بيد كريم ومشت به نحو البحيرة، إلى الصخرة نفسها التي جلسا عليها يوم زارا المدينة أول مرة. الشمسين كانتا تبدأان الغروب: الصفراء الكبيرة تنحني غرباً، والحمراء الصغيرة تلقي بظلال أرجوانية طويلة على الماء الساكن.

جلسا.

لفترة طويلة لم يرسما أي إشارة. فقط جلسا كتف إلى كتف، يراقبان الضوء وهو يتغير على سطح البحيرة. ثم رفعت لونا يدها ورسمت ببطء:

«هل ستبقى؟»

كريم نظر إلى الماء، ثم إليها. أجاب بإشارات هادئة متأنية:

«فترة... نعم. ربما أطول. هناك الكثير لنتعلمه منكم، وهناك الكثير لنحميه معاً».

لونا ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة وجميلة في آن واحد. رسمت: «وعالمك؟»

«عالمي مليء بالأصوات»، أجاب. «أصوات جميلة وأصوات قاتلة. لكنني اكتشفت هنا أن الصمت يمكن أن يكون أعمق من أي كلام قلته في حياتي».

صمت مرة أخرى. ثم مدّ يده وأخذ يدها بين يديه. مرّر إبهامه برفق على راحة كفها، ثم رسم بإصبعه على جلدها الإشارة التي اخترعاها معاً في الكهف:

«أحبك».

لونا أغلقت عينيها لحظة، كأن الكلمة الاهتزازية دخلت إلى صدرها مباشرة. عندما فتحتهما، كانت عيناها لامعتين. ردّت بالإشارة نفسها، ثم أضافت أخرى: «ابقَ... ليس فقط من أجل الكوكب».

كريم أنحنى حتى لامست جبهته جبهتها. همسا بدون صوت، فقط بنبض مشترك:

«سأبقى ما دمتِ تريدين. وما دام الصمت يحتاج إلى من يحرسه».

الشمسين غرقتا تماماً خلف التلال.

القمر الصغير ظهر فوق البحيرة، يلقي ضوءه الحليبي على وجهيهما. في المدينة البعيدة، بدأت أضواء النباتات المتسلقة تتوهج بلطف. وفي المنطقة الآمنة خلفهما، كان بعض أبناء القبيلة يتحركون بهدوء، يجربون السوارات الجديدة بأيدي حذرة.

لونا أسندت رأسها إلى كتف كريم.

هو لف ذراعه حولها.

جلسا كذلك حتى اكتملت ظلمة الليل اللطيفة، يتحدثان بلغة لا تحتاج إلى أذن ولا إلى صوت... لغة أصبحت الآن موطنهما الحقيقي.

الفصل السادس عشر

صوت الصمت

مرت السنوات بهدوء على سيلينتيا.

كريم بقي.

تعلم لغة الإشارة حتى صارت يداه تتحدثان بطلاقة تقارب أبناء الكوكب. تعلم كيف يزرع النباتات المتوهجة، وكيف يقرأ الاهتزازات في التربة قبل أن يشعر بها الآخرون، وكيف يجلس ساعات في المعبد البصري دون أن يحتاج إلى أي كلمة. لونا شفيت تماماً، وصارت الأذن الحساسة التي كادت أن تقتلها أحد أدواتها الأقوى في حماية عالمها.

معاً بنيا ما لم يكن أحد يتخيله في البداية.

ثلاث مناطق تواصل آمنة فقط في كل القارة المعروفة. داخلها يمكن للزوار القادمين من السماء أن يتكلموا بهمس محوّل إلى اهتزازات. خارجها يبقى القانون قائماً: الصمت مقدس، والصوت العالي جريمة ضد الحياة نفسها. السفن التي تأتي بعد ذلك تصل وهي تعرف القواعد. بعضها يأتي للتعلم، وبعضها للتجارة المحدودة جداً، وبعضها يرحل فور أن يدرك أن الثروة الحقيقية هنا ليست في المعادن.

تامر عاد مرة واحدة بعد ثلاث سنوات، محمّلاً بأخبار من الأرض. وقف على حافة المنطقة الآمنة، ونظر إلى المدينة التي صارت أكبر قليلاً وأكثر إشراقاً، ثم قال لكريم وهو يبتسم:

«لقد فهموا... أو على الأقل خافوا بما يكفي ليفهموا. الكوكب صار محمياً بموجب اتفاقية جديدة. اسمها "اتفاقية الصمت"».

ثم نظر إلى لونا التي كانت تقف بجانب كريم، ويده في يدها، وأضاف بإشارة متقنة هذه المرة:

«أنتم الاثنان... صرتم أسطورة هناك».

بعد رحيل تامر، جلسا كالعادة على العشب العالي عند حافة الغابة، في المكان نفسه الذي شعرت فيه لونا بالاهتزاز الأول منذ سنوات.

الشمسين كانتا تغربان.

الضوء الذهبي والأحمر يلونان وجهيها، والعشب تحتها يتوهج بنبضات خفيفة كأنه يشاركهما اللحظة. لونا أسندت رأسها إلى كتف كريم، تماماً كما فعلت في تلك الليلة البعيدة داخل الكهف. هو رفع يده ومرّر أصابعه ببطء شديد، بحنان لا ينتهي، على حافة أذنها الكبيرة الحساسة.

لم ترسم أي إشارة هذه المرة.

لم يحتج هو أيضاً.

الاهتزاز انتقل بينهما مباشرة من الصدر إلى الصدر، كلمة واحدة فقط، واضحة ودافئة وكاملة:

«معاً».

لونا أغلقت عينيها وابتسمت.

كريم قبل جبهتها قبلة خفيفة بلا صوت.

من بعيد، كانت أضواء المدينة تبدأ في التوهج، والبحيرة تعكس النجوم الأولى، والريح تمر بين الأشجار الفضية دون أن تُحدث أكثر من همس يُحس ولا يُسمع.

الصمت كان في كل مكان.

لكنه لم يعد فراغاً، ولا خوفاً، ولا قانوناً قديماً فقط.

صار اللغة التي اختاراها.

صار البيت.

صار الحب الذي لا يحتاج أن يُقال ليكون أصدق ما في العالمين.

وتحت ضوء الشمسين الغارقتين، بقي كريم ولونا جالسين وقتاً طويلاً بعد أن اكتمل الغروب، يدان متشابكتان، وقلبان ينبضان على الإيقاع نفسه...

إيقاع الصمت الذي صار أجمل أصوات الكون.